

عِلْمُ الدِّفَاعِيَّاتِ

المحاضرة ٩: اللغة التشابهيّة، الجزء ٢

أ.ر. سي. سبرول

نُتَابِعُ الْآنَ دِرَاسَتَنَا لِعِلْمِ الدِّفَاعِيَّاتِ، وَالأَزْمَةُ اللُّغَوِيَّةُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِالكَلَامِ عَنِ اللّهِ. فِي المُحَاضَرَةِ المَاضِيَةِ، تَحَدَّثْتُ عَنِ المُشْكَلَةِ الَّتِي سَبَّبَهَا مَذْهَبُ وَحْدَةِ الوجودِ مِنْ جِهَةِ قَوْلِ كَلَامٍ لَهُ مَعْنَى عَنِ اللّهِ. وَرَأَيْنَا رَدَّ الفِعْلِ لِذَلِكَ فِي القَرْنِ العِشْرِينَ، فِي مُحَاوَلَةٍ لِاسْتِعَادَةِ مَا هُوَ فَائِقٌ لِلطَّبِيعَةِ. وَرَأَيْنَا ظُهُورَ المَفْهُومِ الجَدِيدِ القَائِلِ إِنَّ اللّاهُوتَ آخِرُ تَمَامًا. أَشَاعَ ذَلِكَ اللّاهُوتِيُّ كَارْلُ بَارْتِ، الَّذِي وَجَّهَ أَيْضًا نَقْدًا لِادِّعَا خِلَالَ حَيَاتِهِ لِمَا يُسَمَّى بِاللّاهُوتِ الطَّبِيعِيِّ، أَيْ مُحَاوَلَةٍ مَعْرِفَةِ شَيْءٍ عَنِ اللّهِ مِنْ خِلَالَ اسْتِنْتِجَاتٍ مُسْتَمَدَّةٍ مِنَ الطَّبِيعَةِ. عَارَضَ بَارْتِ إِفْحَامُ المَنْطِقِ فِي اللّاهُوتِ. وَهُوَ الَّذِي قَالَ، كَمَا ذَكَرْنَا قَبْلًا فِي حَدِيثِنَا عَنِ قَانُونِ عَدَمِ التَّنَاقُضِ، إِنَّهُ مَا لَمْ يَتِمَكَّنِ المُؤْمِنُ مِنَ المُوَافَقَةِ عَلَى كِلَا طَرَفِي التَّقْيِضِ، لَا يَكُونُ قَدْ بَلَغَ النُّصُوجَ. سَاعَكُسُ ذَلِكَ وَأَقُولُ إِنَّهُ حِينَ يَتِمَكَّنُ أَحَدُهُم مِنَ المُوَافَقَةِ عَلَى كِلَا طَرَفِي التَّقْيِضِ، يَكُونُ قَدْ بَلَغَ الجُنُونَ أَحْيَرًا.

لَكِنِ إِلَى جَانِبِ مُعَارَضَتِهِ لِلْمَنْطِقِ وَاللّاهُوتِ الطَّبِيعِيِّ، شَنَّ هُجُومًا جَدْرِيًّا أَيْضًا عَلَى مَفْهُومِ كَانِ مُتَاصِّلًا بِعُمُقٍ فِي التَّارِيخِ المَسِيحِيِّ، وَلَا سِيَّما كَمَا عَبَّرَ عَنْهُ القِدِّيسُ ثُومَا الأَكُوْبِينِيُّ، وَهُوَ المَفْهُومُ الَّذِي يُسَمَّى "أَنَالُوجِيَا أَنْتِيْس". هَذِهِ العِبَارَةُ اللَاتِينِيَّةُ - أَنَالُوجِيَا أَنْتِيْس - مُصْطَلَحٌ مُتَخَصِّصٌ، لَكِنَّهُ أَسَاسِيٌّ جِدًّا لِهُدَا المَوْضُوعِ بَرْمَتِهِ، لِأَنَّ مَعْنَاهُ "تَشَابُهَ الكَيْنُوتِ". عَارَضَ كَارْلُ بَارْتِ ذَلِكَ، قَائِلًا إِنَّهُ لَا تَشَابُهَ فِي الكَيْنُوتِ بَيْنَ اللّهِ وَالإنْسَانِ، لِأَنَّ اللّاهُوتَ آخِرُ تَمَامًا. فَهُوَ يَسْمُو قُوفِنَا تَمَامًا، وَبِالتَّالِي، هُوَ مُخْتَلِفٌ عَنَّا تَمَامًا.

فِي مُحَاوَلَةٍ لِتَوْضِيحِ المَشَاكِلِ الَّتِي يُسَبِّبُهَا ذَلِكَ لِلْمَسِيحِيَّةِ، دَعَوْنِي أَخْبِرْكُمْ بِقِصَّةٍ - وَهِيَ المِثَالُ المُفَضَّلُ لَدَيَّ فِي هَذَا المَوْضُوعِ. تَتَعَلَّقُ القِصَّةُ بِتَجْرِبَةٍ مَرَّرْتُ بِهَا مُنْذُ عِدَّةِ سَنَوَاتٍ فِي كَنَدَا، حَيْثُ كُنْتُ أَتَحَدَّثُ إِلَى مَجْمُوعَةٍ مِنْ أَعْضَاءِ هَيْئَةِ التَّدْرِيسِ فِي إِحْدَى المُوَسَّسَاتِ، وَكَانُوا مُعَارِضِينَ لِلّاهُوتِ الطَّبِيعِيِّ وَالعَقْلَانِيَّةِ، وَرَصَدُوا فِي لَاهُوتِي اعْتِمَادًا زَائِدًا عَنِ الحَدِّ عَلَى القِدِّيسِ ثُومَا الأَكُوْبِينِيِّ، وَأَرِسْطُو، وَالْمَنْطِقِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ. وَفِي مُنَاقَشَتِنَا، قَالُوا لِي - وَكُنْتُ بِمُفْرَدِي ضِدَّ أَعْضَاءِ هَيْئَةِ التَّدْرِيسِ جَمِيعِهِمْ. قَالَ لِي وَاحِدٌ مِنَ اللّاهُوتِيِّينَ البَارِزِينَ هُنَاكَ: "نُواجِهُ مُشْكَلَةً مَعَ نَظَرَتِكَ عَنِ اللّاهُوتِ الطَّبِيعِيِّ، لِأَنَّنا نُؤْمِنُ بِأَنَّ اللّاهُوتَ آخِرُ تَمَامًا". فَقُلْتُ: "حَسَنًا، لَوْ كَانَ اللّاهُوتَ آخِرُ تَمَامًا، فَكَيْفَ تَعْرِفُونَ شَيْئًا عَنْهُ؟" فَأَجَابَنِي عَلَى القُورِ كَمَا أَجَابَ كَارْلُ بَارْتِ قَبْلًا، بِأَنَّنا لَا نَعْرِفُ اللّاهُوتَ بِالتَّخْمِينِ أَوْ الإِسْتِنْتِجَاتِ المَنْطِقِيَّةِ، وَإِنَّمَا نَعْرِفُهُ بِالإِعْلَانِ. فَهَذَا الإِلَهُ المُنْتَسَايُ يُعْلِنُ لَنَا عَنْ ذَاتِهِ. فَقُلْتُ: "حَسَنًا، دَعْنِي أَسْأَلُكَ مُجَدِّدًا، كَيْفَ يُعْلِنُ لَنَا عَنْ ذَاتِهِ؟" فَأَجَابَ: "هُوَ يُعْلِنُ لَنَا عَنْ ذَاتِهِ مِنْ خِلَالَ التَّارِيخِ، وَالكِتَابِ المُقَدَّسِ، وَفَوْقَ الكُلِّ مِنْ خِلَالَ المَسِيحِ". فَقُلْتُ: "لَا أَظُنُّ أَنَّكُمْ

تَفْهَمُونِي. رُبَّمَا لَمْ أَكُنْ وَاضِحًا. وَلَمْ أَصِغِ السُّؤَالَ كَمَا يَنْبَغِي. مَا أَحَاوِلُ أَنْ أَعْرِفَهُ هُوَ كَيْفَ يُمَكِّنُ لِكَائِنٍ مُخْتَلِفٍ عَنِّي تَمَامًا، وَلَا يُوجِدُ أَيَّ تَشَابُهٍ فِي الْكَيْنُونَةِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، أَنْ يُخْبِرَنِي بِشَيْءٍ عَن ذَاتِهِ؟ كَيْفَ يُمَكِّنُهُ أَنْ يُعْلِنَ لَنَا أَيَّ شَيْءٍ، بِأَيَّةِ وَسِيلَةٍ، إِنْ لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ آيَةٌ وَسِيلَةٌ اتَّصَلَ بَيْنَنَا؟ فَإِذَا كُنَّا كَائِنِينَ مُخْتَلِفِينَ تَمَامًا، مَا الْأَرْضِيَّةُ الْمُشْتَرَكَةُ لِلتَّوَاصُلِ بَيْنَنَا؟" وَأَخِيرًا، اتَّضَحَتِ الْأُمُورُ، وَضَرَبَ هَذَا اللَّاهُوتِيُّ جَبْهَتَهُ بِيَدِهِ - هَكَذَا - قَائِلًا: "رُبَّمَا كَانَ يَنْبَغِي أَلَّا أَقُولَ إِنَّ اللَّهَ آخِرُ تَمَامًا". فَقُلْتُ: "هَذَا صَاحِحٌ، لِأَنَّهُ بِمُجَرَّدِ قَوْلِكَ ذَلِكَ، تَفْتَحُ الْبَابَ أَمَامَ الشُّكُوكِيِّ لِيَقُولَ لَكَ إِنَّ لُغَتَكَ عَنِ اللَّهِ بِلَا مَعْنَى، لِأَنَّ الْفَيْلَسُوفَ يَعْرِفُ الْفِكْرَةَ الَّتِي طَرَحْتُهَا لِتَوَيِّ، وَهِيَ أَنَّهُ مَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ تَشَابُهٌ بَيْنَ اللَّهِ وَالْإِنْسَانِ، لَنْ تُوجَدَ أَرْضِيَّةٌ مُشْتَرَكَةٌ، أَوْ وَسِيلَةٌ لِلتَّوَاصُلِ".

سَأَحَاوِلُ التَّوَضِيحَ. لِئَنَّتِهِ مِنْ ذَلِكَ. شَاهَدَ بَعْضُكُمْ مُنْذُ سَنَوَاتِ الْفِيلْمِ مِنْ بَطُولَةِ بُولُ - قَائِدِ سَيَّارَةِ السِّبَاقِ - بُولُ نِيُومَانُ، بِعُنْوَانِ "Cool Hand Luke". وَبِالْمُنَاسَبَةِ، كَانَ لُوكُ رَمَزًا لِلْمَسِيحِ فِي الْفِيلْمِ. هَذَا حَيَالٌ إِبْدَاعِيٌّ. وَطَوَالَ الْفِيلْمِ، وَاجَهَ السُّجْنَاءُ مَشَاكِلَ بِسَبَبِ تَقْيِيدِهِمْ مَعًا بِسَلْسِلٍ. وَأَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ نَسَمِعُ جُمْلَةً: "نُعَانِي صُعُوبَةً فِي التَّوَاصُلِ". وَأَصْبَحَتْ هَذِهِ وَاحِدَةً مِنَ الْجُمَلِ الرَّئِيسِيَّةِ فِي الْفِيلْمِ. فَمَا يَلْزَمُ لِلتَّوَاصُلِ هُوَ وُجُودُ أَرْضِيَّةٍ مُشْتَرَكَةٍ، حَتَّى يَتَحَدَّثَ النَّاسُ مَعًا. فَإِذَا ذَهَبْتَ إِلَى بَلَدٍ أجنبيٍّ، مِثْلِ رُوسِيَا، وَلَمْ تَكُنْ تَعْرِفُ شَيْئًا عَنِ اللُّغَةِ الرُّوسِيَّةِ، وَكَانَ الشَّخْصُ الَّذِي سَتَلْتَقِي بِهِ هُنَاكَ لَا يَعْرِفُ شَيْئًا عَنِ اللُّغَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ، سَتَجِدَانِ صُعُوبَةً فِي التَّوَاصُلِ، وَلَا سِيَّمَا إِنْ كَانَتْ أَيْدِيكُمْ مُقَيَّدَةً، فَعَجَزْتُمَا عَنِ التَّعْبِيرِ بِالْإِشَارَةِ أَوْ الْكِتَابَةِ. قَدْ تَسَمِعَ الْكَلَامَ، فَيَبْدُو لَكَ كَالطَّلَاسِمِ. لَكِنْ حِينَ يَتَحَدَّثُ رُوسِيَانِ مَعًا، يَعْرِفَانِ تَمَامًا مَا يَقُولُهُ كُلُّ مِنْهُمَا، لِأَنَّهُمَا يَتَحَدَّثَانِ اللُّغَةَ نَفْسَهَا.

رُبَّمَا أَقُولُ إِنِّي أَتَحَدَّثُ لُغَتَكُمْ أَنْتُمْ الْأَمْرِيكِيِّينَ. وَقَدْ يَكُونُ هَذَا صَاحِحًا أَوْ خَطَأً. تَدَكَّرُوا تَعْلِيْقَ وَنِسْتُونَ تُشْرِشِلُ بِأَنَّ الْأَمْرِيكِيِّينَ وَالتَّبْرِيْطَانِيِّينَ شَعْبَانِ تَفْصِلُهُمَا لُغَةٌ مُشْتَرَكَةٌ (يُعْجِبُنِي هَذَا الْقَوْلُ). فَإِذَا قُلْتَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ فِي الصَّفِّ الْأَمَامِيِّ يَجْلِسُ عَلَيَّ كُرْسِيِّ، أَظُنُّ أَنَّكُمْ سَتَفْهَمُونَ جَيِّدًا مَا أَقْصِدُهُ بِقَوْلِي إِنَّهُ جَالِسٌ عَلَيَّ كُرْسِيِّ، لِأَنَّكُمْ تَفْهَمُونَ مَا تُشِيرُ إِلَيْهِ كَلِمَةُ كُرْسِيِّ.

وَكَيْفَ فَهَمْتُمْ مَعْنَى كَلِمَةِ كُرْسِيِّ؟ أَنْسَاءَلُ عَنِ آفِ أَوْ رُبَّمَا مَلَائِينَ الْمَرَّاتِ فِي حَيَاتِكُمْ الَّتِي رَأَيْتُمْ فِيهَا كُرَاسِي. وَكَلَّمَا رَأَيْتُمْ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً الْكُرَاسِي فِي هَذِهِ الْعُرْفَةِ، تُسَجِّلُونَ فِي عُقُولِكُمْ الْعِلَاقَةَ بَيْنَ هَذَا الشَّيْءِ وَوِظَيفَتِهِ، وَتِلْكَ الْكَلِمَةُ الْبَسِيطَةُ ك-ر-س-ي. وَتَكُونُونَ فِكْرَةً، كَمَا قَالَ أَفْلَاطُونُ، عَنِ خَصَائِصِ الْكُرْسِيِّ، مِنْ خِلَالِ كُلِّ خِبْرَاتِكُمْ مَعَ الْكُرَاسِي، بِحَيْثُ يَكُونُ مَفْهُومُكُمْ لِمَعْنَى كَلِمَةِ كُرْسِيِّ مَبْنِيًّا فِي النِّهَايَةِ عَلَيَّ خِبْرَاتِكُمْ الْخَاصَّةَ مَعَ الْكُرَاسِي.

لَمْ يَمَرَّ أَيُّ شَخْصَيْنِ فِي هَذِهِ الْعُرْفَةِ بِالْخِبْرَةِ الشَّخْصِيَّةِ نَفْسَهَا مَعَ الْكُرَاسِي. فَتَجَرَّبْتُمْ مَعَ الْكُرَاسِي تَحْتَلِفُ عَنِ تَجْرِبَتِي. أَنْتُمْ أَصْعَرُ عُمَرًا مِنِّي، وَأَفْتَرِضُ أَنَّكُمْ رَأَيْتُمْ عَدَدًا مِنَ الْكُرَاسِي أَقَلَّ مِنَ الَّذِي رَأَيْتُهُ. وَأَنْتُمْ تَعِيشُونَ فِي عَصْرِ

مُخْتَلِفٍ، حَيْثُ تَتَعَبَّرُ أَشْكَالُ الْكُرْسِيِّ مِنْ عَقْدٍ إِلَى آخَرَ. فَثَمَّةُ كَرَايسٍ مَأْلُوفَةٌ لَدَيَّ تَعُودُ إِلَى الْأَرْبَعِينَاتِ وَالْحَمْسِينَاتِ رُبَّمَا لَنْ تَعْرِفُوا حَتَّى أَتَّهَا كَرَايسٍ. إِذَنْ، لَدَيْنَا خَلْفِيَّةٌ مُخْتَلِفَةٌ مِنَ الْخَبْرَاتِ مَعَ تِلْكَ الْكَلِمَةِ. إِذَنْ، عِنْدَمَا أَقُولُ "كُرْسِيًّا"، وَتَسْمَعُونَ كَلِمَةَ "كُرْسِيًّا"، تَسْمَعُونَ شَيْئًا مُخْتَلِفًا عَمَّا أَقُولُهُ، لِأَنَّ مَفْهُومَكُمْ لِكَلِمَةِ كُرْسِيٍّ مُسْتَمَدٌّ مِنْ خَبْرَتِكُمْ الشَّخْصِيَّةِ مَعَ الْكَرَايسِ، وَمَفْهُومِي لِلْكَرَايسِ مُسْتَمَدٌّ مِنْ خَبْرَتِي الشَّخْصِيَّةِ مَعَ الْكَرَايسِ. وَإِذَا كَانَتْ هَاتَانِ التَّجْرِبَتَانِ مُخْتَلِفَتَيْنِ، وَبِقَدْرِ اخْتِلَافِهِمَا، يَنْشَأُ سُوءُ الْفَهْمِ أَوْ الْإِفْتِرَاضَاتُ الْمُخْتَلِفَةُ. لَكِنَّ خَبْرَاتِنَا مَعَ الْكَرَايسِ مُتَشَابِهَةٌ جِدًّا لِدَرَجَةِ أَنَّهُ رَعْمٌ عَدَمٌ تَطَابِقِ خَبْرَاتِنَا مَعَ كَلِمَةِ كُرْسِيٍّ، تُعَدُّ أَوْجُهُ الشَّبَهِ بَيْنَ خَبْرَاتِنَا مَعَ الْكَرَايسِ مُتَقَارِبَةً جِدًّا، حَتَّى إِنَّ أَيَّْ اخْتِلَافٍ فِي فَهْمِ كَلِمَةِ كُرْسِيٍّ يَكُونُ طَافِيًا جِدًّا، وَبِذَلِكَ عَدِيمِ الْأَهْمِيَّةِ. فَإِنَّكُمْ تَعْلَمُونَ مَا أَفْصَدُهُ عِنْدَمَا أَقُولُ "كُرْسِيًّا". وَبِهَذَا، يُمَكِّنُنَا إِجْرَاءُ حَدِيثٍ لَهُ مَعْنَى، فَتَفْهَمُونَ فِيهِ مَا أَقُولُهُ، وَأَفْهَمُ مَا تَقُولُونَهُ.

الْيَوْمَ الْفَائِتِ، كُنْتُ أَتَحَدَّثُ فِي مُؤْتَمَرٍ عَنِ التَّسَامِي وَالْحُلُولِ الْإِلَهِيِّ. وَإِحْدَى السَّيِّدَاتِ الْحَاضِرَاتِ الْيَوْمَ - لَنْ أَكْشِفَ عَنْ هُوِيَّتِهَا - ظَنَّتْ أَنَّهَا لَمْ تَسْمَعْنِي أَقُولُ "حُلُولًا" بَلْ "حَلْوَى". وَلَمْ حَدِّثْ سُوءَ الْفَهْمِ هَذَا؟ كَمْ عَدَدُ الْمَرَّاتِ الَّتِي سَمِعْتَ فِيهَا مُصْطَلَحَ "حُلُولٍ" مِنْ مَنْظُورٍ فِلْسَافِيٍّ أَوْ لَاهُوتِيٍّ؟ رُبَّمَا لَمْ تَسْمَعُهُ قَطُّ قَبْلًا. فَلَمْ تَكُنْ لَدَيْهَا خَبْرَةٌ مَعَ تِلْكَ الْكَلِمَةِ، وَخَبْرَتُهَا مَعَهَا، حِينَ سَمِعْتَهَا لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، لَمْ تَخْتَلِفْ كَثِيرًا عَنْ خَبْرَتِي مَعَهَا حِينَ سَمِعْتَهَا لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، حَيْثُ أَصَبْتُ بِالذَّهْشَةِ الشَّدِيدَةِ. وَكُنْتُ لِأُصْبِحَ أَفْضَلَ حَالًا لَوْ سَمِعْتُ الْأُسْتَاذَ يَقُولُ "حَلْوَى"، بَدَلًا مِنْ "حُلُولٍ". وَبِالتَّالِي، حِينَ نَسْمَعُ كَلِمَاتٍ أَكْثَرَ عُمُومًا وَغَرَابَةً، وَأَقَلَّ شُبُوحًا، يَنْهَارُ مَبْدَأُ التَّالِفِ مَعَ الْكَلِمَاتِ، فَتَجِدُ صُعُوبَةً فِي التَّوَاصُلِ، لِأَنَّكَ قَدْ لَا تَدْرِي مَاذَا أَقُولُ، إِذَا اسْتُخْدِمَتْ مُصْطَلَحَاتٌ مُعَقَّدَةٌ غَيْرَ مَأْلُوفَةٍ لَدَى الْجَمِيعِ. إِذَنْ، نُذْرِكُ كَيْفَ يُمَكِّنُ لِلُّغَةِ أَنْ تَنْهَارَ عِنْدَمَا يَقُولُ تَالِفُنَا مَعَ الْكَلِمَاتِ الَّتِي نَسْتُخْدِمُهَا بَعْضُنَا مَعَ بَعْضٍ. مَا عَلاَقَةُ ذَلِكَ بِاللَّهِ وَبِعِلْمِ الدِّفَاعِيَّاتِ؟ مُجَدِّدًا، لَوْ كَانَ اللَّهُ مُخْتَلِفًا عَنَّا تَمَامًا، لَنْ تَكُونَ لَدَيْنَا أَرْضِيَّةٌ مُشْتَرَكَةٌ، أَوْ تَأَلَّفٌ مُشْتَرَكٌ. وَكُلُّ مَا سَيَقُولُهُ لَنَا عَنْ نَفْسِهِ لَنْ يَمُتَّ لَنَا بِصِلَةٍ لَوْ كَانَ مُخْتَلِفًا عَنَّا كَلْبِيَّةً. فَإِنْ قَالَ: "أَنَا كُلِّي الْقُدْرَةَ"، فَقُلْنَا: "مَهَلَا، أَعْرِفُ بَعْضَ الشَّيْءِ عَنِ الْقُدْرَةِ الْكَلْبِيَّةِ. لَمْ أَلْتَقِ قَبْلًا بِكَلْبٍ كُلِّي الْقُدْرَةَ، لَكِنَّ يُمَكِّنُنِي تَحْلِيلُ مُصْطَلَحِ 'قُدْرَةُ كَلْبِيَّةٍ' لِأَعْرِفَ أَنَّ مَعْنَاهَا 'كُلِّي الْقُوَّة'. أَفَهُمْ كَلِمَةُ 'قُوَّةٍ' لِأَنَّنا نَمَارِسُ الْقُوَّةَ. وَقُوَّتُنَا مُحْدُودَةٌ. لَكِنَّ مَعَ أَنِّي لَمْ أَشْهَدْ قَطُّ قُوَّةً غَيْرَ مُحْدُودَةٍ، يُمَكِّنُ عَلَيَّ الْأَقْلَ أَنْ أَتَخَيَّلَ شَكْلَ الْقُوَّةِ غَيْرِ الْمَحْدُودَةِ، لِأَنِّي أَرَى دَرَجَاتٍ مِنَ الْقُوَّةِ فِي الْعَالَمِ الَّذِي أَعِيشُ فِيهِ". إِذَنْ، عِنْدَمَا يُعْلِنُ لَنَا اللَّهُ أَنَّهُ قَوِيٌّ، أَجِدُ لَدَيَّ فِكْرَةً عَنِ الْقُوَّةِ، بِحَيْثُ حِينَ يُكَلِّمُنِي وَيَقُولُ إِنَّهُ قَوِيٌّ، تَكُونُ لَدَيَّ نُقْطَةٌ تَوَاصُلٍ مَعَ الْقُوَّةِ. لَكِنَّ يَحْدُثُ هَذَا فَقَطُّ حِينَ يَكُونُ بَيْنَنَا بَعْضُ التَّشَابُهِ.

دَعُونِي أَتَوَقَّفُ قَلِيلًا لِتَقْدِيمِ دَرَسٍ بَسِيطٍ فِي التَّارِيخِ. فَسَأَلَهُ مَعْنَى الْكَلَامِ، وَكَفَاءَةُ اللَّغَةِ الْبَشَرِيَّةِ فِي التَّكَلُّمِ عَنِ إِلَهٍ قُدُوسٍ وَمُتَّسِمٍ، لَيْسَتْ وَوَلِيدَةُ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ. تَعُودُ الْمَسْأَلَةُ إِلَى تَارِيخِ الْفِكْرِ النَّظَرِيِّ. وَكَانَ عَلَيَّ الْقَدِيسُ ثُومًا الْأَكُوْبِيْنِي التَّعَامُلُ مَعَهَا، إِذْ كَانَ دِفَاعِيًّا فِي أَيَّامِهِ. مَيَّزَ الْأَكُوْبِيْنِي بَيْنَ ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ مِنَ اللَّغَةِ - ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ مِنَ اللَّغَةِ

الْوَصْفِيَّة - سَبَقَ أَنْ تَطَرَّقْتُ إِلَيْهَا فِي مُقَرَّرَاتٍ أُخْرَى فِي لِيَجُونِيرَ، لَكِنْ سَنَتَنَاوَلُهَا هُنَا مُجَدِّدًا. فَقَدْ مَيَّرَ أَوَّلًا بَيْنَ اللَّغَةِ أَحَادِيَّةِ الْمَعْنَى. وَثَانِيًا، تَحَدَّثَ عَنِ اللَّغَةِ الْمُلتَبَسَةِ. وَثَالِثًا، اللَّغَةِ التَّشَابُهِيةِ.

مَا الْفَرْقُ بَيْنَ الثَّلَاثَةِ؟ اللَّغَةُ أَحَادِيَّةُ الْمَعْنَى هِيَ وَصْفٌ طَرَفَيْنِ لِأَمْرٍ مَا فِي تَطَابُقٍ تَامٍّ. فَمَثَلًا، إِنْ كَانَ مَفْهُومِي عَنِ الْكُرْسِيِّ مُطَابِقًا تَمَامًا لِمَفْهُومِكُمْ عَنِ الْكُرْسِيِّ، يَكُونُ التَّوَاصُلُ بَيْنَنَا أَحَادِيَّةِ الْمَعْنَى، أَيْ يَكُونُ لَنَا صَوْتٌ وَاحِدٌ مُتَطَابِقٌ. أَمَّا اللَّغَةُ الْمُلتَبَسَةُ، فَهِيَ حِينَ يَتَغَيَّرُ مَعْنَى اللَّفْظِ جِذْرِيًّا خِلَالَ الْحَدِيثِ. وَالْمِثَالُ لِذَلِكَ هُوَ أَنِّي حِينَ أَعْلَمُ الْمُنْطِقَ لِطَلَابِي بِكَلِمَةِ الْأَاهُوتِ، وَأَعْلَمُهُمْ مَعَالِظَةَ الْإِلْتِبَاسِ فِي الْمَعْنَى، أَشْرَحُ لَهُمْ مَعَالِظَةَ الْإِلْتِبَاسِ فِي الْمَعْنَى عَنِ طَرِيقِ إِثْبَاتِ أَنَّ الْقِطْعَةَ لَهَا تِسْعَةُ دُيُولٍ.

هَلْ تَذَكَّرُ حِينَ أَثْبَتْتُ لَكَ يَا رُوجِرُ أَنَّ الْقِطْعَةَ لَهَا تِسْعَةُ دُيُولٍ؟ سَنَفْعَلُ ذَلِكَ مُجَدِّدًا. فَرَضِيَّتِي الْأُولَى فِي الْمَعَادَلَةِ هِيَ: لَا قِطْعَةَ لَهَا ثَمَانِيَةُ دُيُولٍ. أَتَوَافِقُ عَلَى ذَلِكَ يَا رُوجِرُ؟ فَأَنْتَ لَمْ تَرَ قِطْعَةَ لَهَا ثَمَانِيَةُ دُيُولٍ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ حَسَنًا، سَأُثْبِتُ لَكَ الْآنَ أَنَّ الْقِطْعَةَ لَهَا تِسْعَةُ دُيُولٍ. لَا قِطْعَةَ لَهَا ثَمَانِيَةُ دُيُولٍ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ وَالْيَكِ سُوَالِي. إِنْ كَانَ لَدَيْ صُنْدُوقَانِ، وَفِي أَحَدِ الصُّنْدُوقَيْنِ قِطْعَةٌ، وَكَانَ الْآخَرُ فَارِعًا. لَدَيْنَا إِذَنْ صُنْدُوقٌ فَارِعٌ هُنَا، وَآخَرُ فِيهِ قِطْعَةٌ. وَالْآنَ سَأُخْتَبِرُ مَعْلُومَاتِكُمْ فِي الْحِسَابِ. كَمْ عَدَدُ الْقِطْعِ الَّذِي يَزِيدُ فِي هَذَا الصُّنْدُوقِ عَنِ الصُّنْدُوقِ الْآخَرِ يَا رُوجِرُ؟ وَاحِدٌ، شُكْرًا جَزِيلًا. وَكَمْ عَدَدُ دُيُولِ الْقِطْعِ الَّذِي يَزِيدُ فِي هَذَا الصُّنْدُوقِ عَنِ الصُّنْدُوقِ الْآخَرِ؟ وَاحِدٌ. وَكَمْ عَدَدُ الْقِطْعِ فِي هَذَا الصُّنْدُوقِ؟ صِفْرٌ. إِذَنْ لَا قِطْعَةَ فِي هَذَا الصُّنْدُوقِ، وَتُوجَدُ قِطْعَةٌ وَاحِدَةٌ فِي هَذَا الصُّنْدُوقِ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ إِذَنْ، لَدَيْ دَيْلٌ إِضَائِيٌّ فِي هَذَا الصُّنْدُوقِ عَنِ الْآخَرِ. إِذَنْ، سَأَقُولُ إِنَّ قِطْعَةَ وَاحِدَةً لَدَيْهَا دَيْلٌ إِضَائِيٌّ عَنِ مَاذَا؟ عَنِ لَا قِطْعَةَ. هَذِهِ مَسْأَلَةٌ بَسِيطةٌ تَتَعَلَّقُ بِالْإِسْتِنَاجِ. فَإِنْ قُلْنَا إِنَّ لَا قِطْعَةَ لَهَا ثَمَانِيَةُ دُيُولٍ، وَقِطْعَةٌ وَاحِدَةٌ لَهَا دَيْلٌ وَاحِدٌ إِضَائِيٌّ عَنِ لَا قِطْعَةَ، فَكَمْ عَدَدُ دُيُولِ الْقِطْعَةِ الْوَاحِدَةِ؟ وَهُوَ الْمَطْلُوبُ إِثْبَاتُهُ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ ثَمَانِيَةُ زَائِدٌ وَاحِدٌ يُسَاوِي مَاذَا؟ تِسْعَةَ. إِذَنْ، نَسْتَنْتِجُ بِمَنْطِقٍ لَا يُقَاوِمُ أَنَّ قِطْعَةَ وَاحِدَةً لَهَا تِسْعَةُ دُيُولٍ. خَدَعْتِكُمْ. وَمَا الْخُدْعَةُ؟ مَاذَا حَدَّثَ فِي هَذَا التَّسْلُسِ الْمَنْطِقِيِّ؟ مَعْنَى عِبَارَةَ "لَا قِطْعَةَ" تَغَيَّرَ فِي مُنْتَصَفِ الْحَدِيثِ، وَاخْتَلَفَ مَعْنَاهُ هُنَا تَمَامًا عَنِ مَعْنَاهُ هُنَا، وَهَذَا مَا يُسَمَّى بِمَعَالِظَةِ الْإِلْتِبَاسِ فِي الْمَعْنَى.

سَأَقْدِمُ مَثَلًا آخَرَ. ذَهَبَ رَجُلٌ إِلَى الْمَسْرَحِ لِلِاسْتِمَاعِ إِلَى قِرَاءَةِ أَدْبِيَّةٍ لِمَسْرَحِيَّةٍ، وَعِنْدَمَا عَادَ مِنَ الْمَسْرَحِ، سَأَلْتُهُ: "كَيْفَ كَانَتْ الْقِرَاءَةُ الْمَسْرَحِيَّةُ؟" أَجَابَنِي: "كَانَتْ قِرَاءَةً جَافَةً." قِرَاءَةً جَافَةً. أَتَفْصِدُ أَنَّ الرَّاوِي كَانَ يُمَسِّكُ بِوَرَقٍ مُجَفَّفٍ؟ كَلَّا، لَيْسَ هَذَا مَا سَتَفْهَمُهُ مِنْ كَلَامِهِ. بَلْ سَتَفْهَمُ أَنَّ شَيْئًا مَا كَانَ نَاقِصًا، رَبَّمَا بَعْضُ التَّعْبِيرِ أَوْ الْإِنْفِعَالَاتِ. لَمْ تَكُنِ الْقِرَاءَةُ مُسَوِّفَةً، وَلِهَذَا نَقُولُ إِنَّهَا جَافَةٌ. هَذَا مَا يُعْرَفُ بِالِاسْتِخْدَامِ الْمُلتَبَسِ لِلْفِظِ "جَافٌ"، حَيْثُ إِنَّنَا نَسْتُخْدِمُ بِالطَّبِيعَةِ اللَّفْظِ "جَافٌ" بِمَعْنَى غَيْرِ مُبْتَلٍّ. لَكِنَّا غَيَّرْنَا مَعْنَاهُ عَنِ الْمَعْنَى الْأَصْلِيَّةِ، وَاسْتُخْدِمْنَاهُ لِوَصْفِ

الْقِرَاءَةِ. وَبِهَذَا، تَغَيَّرَ مَعْنَى اللَّفْظِ جِذْرِيًّا. إِذَنْ، الْفَرْقُ بَيْنَ اللَّغَةِ أَحَادِيَّةِ الْمَعْنَى وَاللَّغَةِ الْمُلتَبِسَةِ هُوَ أَنَّ اللَّغَةَ أَحَادِيَّةَ الْمَعْنَى تَحْمِلُ تَشَابُهًا دَقِيقًا فِي الْمَعْنَى، أَيْ تَطَابُقًا. أَمَّا فِي اللَّغَةِ الْمُلتَبِسَةِ، فَتَتَغَيَّرُ الْمَعَانِي جِذْرِيًّا مِنْ شَخْصٍ إِلَى الْآخَرِ.

لَكِنَّ الْأَكُوْبِيْنَ قَالَ إِنَّهُ يُوجَدُ نَوْعٌ مِنَ اللَّغَةِ مُتَوَسِّطٌ بَيْنَ الْإِثْنَيْنِ، وَهُوَ اللَّغَةُ التَّشَابُهِيَّةُ. وَاللَّغَةُ التَّشَابُهِيَّةُ تَعْنِي أَنَّ مَعْنَى اللَّفْظِ يَتَغَيَّرُ بِالتَّنَاسُبِ مَعَ اخْتِلَافِ الْكَائِنَاتِ الَّتِي تُوصَفُ. دَعَوْنِي أَكْرُرْ هَذَا. يَتَغَيَّرُ مَعْنَى اللَّفْظِ بِالتَّنَاسُبِ مَعَ اخْتِلَافِ الْكَائِنَاتِ الَّتِي تُوصَفُ. سَأُقَدِّمُ مِثَالًا لِهَذَا. هَلْ لَدَيْكَ كَلْبٌ؟ هَلْ لَدَيْكَ كَلْبٌ؟ مَنْ لَدَيْهِ كَلْبٌ؟ هَلْ كَلْبُكَ صَالِحٌ؟ لَدَيْ كَلْبٍ صَالِحٍ. فَحِينَ يَقُولُ لِي أَحَدُهُمْ إِنَّ كَلْبَهُ صَالِحٌ، هَلْ يَقْصِدُ بِذَلِكَ أَنَّ كَلْبَهُ لَدَيْهِ وَعَيْ أَحْلَاقِي، وَصَمِيرٌ حَسَّاسٌ يُمَيِّزُ بَيْنَ الصَّوَابِ وَالْخَطَا؟ هَلْ هَذَا مَا تَقْصِدُهُ؟ كَلَّا، فَأَنْتَ لَا تَقْصِدُ أَنَّ كَلْبَكَ يَجْلِسُ وَيُفَكِّرُ فِي الْمَسَائِلِ الْأَخْلَاقِيَّةِ. فَعِنْدَمَا قُلْتَ إِنَّ كَلْبَكَ صَالِحٌ، كُنْتَ تَقْصِدُ أَنَّهُ يَأْتِي إِلَيْكَ عِنْدَمَا تُنَادِيهِ، وَأَنَّهُ مُدْرَبٌ عَلَى الْعَيْشِ فِي الْبُيُوتِ، وَأَنَّهُ لَا يَعُضُّ سَاعِي الْبَرِيدِ فِي قَدَمِهِ. هَذَا مَعْنَى "صَالِحٍ" هُنَا. لَكِنَّ إِذَا قُلْتَ إِنَّ فَرِيدَ رَجُلٍ صَالِحٍ، فَهَلْ أَقْصِدُ أَنَّهُ يَأْتِي حِينَ تُنَادِيهِ، وَأَنَّهُ مُدْرَبٌ عَلَى الْإِقَامَةِ فِي الْبُيُوتِ، وَأَنَّهُ لَا يَعُضُّ سَاعِي الْبَرِيدِ فِي قَدَمِهِ؟ كَلَّا الْبَتَّةُ. فَيَقُولِي إِنَّ فَرِيدَ رَجُلٍ صَالِحٍ، أَقْصِدُ مَعْنَى مُخْتَلِفًا عَمَّا أَقْصِدُهُ بِقَوْلِي إِنَّ كَلْبِي صَالِحٌ، لِأَنَّ الصِّفَةَ "صَالِحٍ" تَتَغَيَّرُ بِاخْتِلَافِ الْكَائِنَاتِ الَّتِي تُوصَفُ.

نَقُولُ أَيضًا إِنَّ اللَّهَ صَالِحٌ. فَصَلَاحُ اللَّهِ يُشْبِهُ صَلَاحَنَا، لَكِنَّهُ غَيْرُ مُطَابِقٍ لَهُ، بَلْ هُوَ أَسْمَى وَأَفْضَلُ. فَلَيْسَ فِي صَلَاحِهِ أَيُّ عُيُوبٍ، بَيْنَمَا صَلَاحَنَا مَلِيءٌ بِالْعُيُوبِ. إِذَنْ، حَتَّى حِينَ أَقُولُ إِنَّ اللَّهَ صَالِحٌ، لَسْتُ أَسْتُخْدِمُ اللَّفْظَ "صَالِحٍ" بِشَكْلِ أَحَادِيَّةِ الْمَعْنَى، بَلْ أَسْتُخْدِمُهُ بِالْمَعْنَى التَّشَابُهِيَّةِ. لَكِنَّ مَعَ ذَلِكَ لَهُ مَعْنَى. وَيَصِيرُ لَهُ مَعْنَى كِتَابِي لِأَنَّ اللَّهَ خَلَقَنَا عَلَى صُورَتِهِ وَكَشَبَهُ، بِحَيْثُ أَمَدَنَا اللَّهُ فِي الْخَلْقِ بِالْأُسُسِ وَالْإِمْكَانِيَّاتِ اللَّازِمَةِ لِيَصِلَنَا مِنْهُ كَلَامٌ لَهُ مَعْنَى، نَفْهَمُهُ قَدْرَ الْإِمْكَانِ.

الدُّكْتُورُ آر. سي. سَبْرُولُ هُوَ مُؤَسِّسُ هَيْئَةِ خِدْمَاتِ لِيْجُونِيرِ، وَكَانَ أَحَدَ رِعَاةِ كَنِيسَةِ الْقُدَيْسِ أُنْدُرُو (St. Andrews Chapel) فِي مَدِينَةِ سَانْفُورْدِ بُولَايَةِ فُلُورِيدَا، كَمَا كَانَ أَوَّلَ رَئِيسِ لِكَلِّيَّةِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ لِلْإِصْلَاحِ (Reformation Bible College) وَهُوَ مُؤَلَّفٌ أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كِتَابٍ، بِمَا فِي ذَلِكَ "كَلْنَا لَاهُوتِيُونَ" و"أَدَهْشَنِي الْأُمُّ".